تنـزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن القيم
" رحمه اللّه "

إعداد

د. يحيى بن محمد زمزمي

أستاذ مشارك بكلية الدعوة وأصول الدين
جامعة أم القرى

ملخص البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ، وبعد :

فقد عني أهل العلم قديماً وحديثاً بتدبر القرآن العظيم وتأمل آياته، والوقوف عند أحكامه وتوجيهاته، واستنباط العلاقة بين الواقع وحكمه وهداياته، وكان من الأئمة الأعلام، والعلماء الكرام، الذين عاشوا حياتهم بالقرآن ومع القرآن فقهاً وفهماً، وتدبراً وعلماً، وتطبيقاً وعملاً؛ الإمام المبارك: شمس الدين، أبو عبدالله، محمد بن أبي بكر الزرعي، المشهور بـ"ابن القيم" [ت ٧٥١هـ] رحمة الله عليه .

فرأيت أن أبحث جهوده في ربط الآيات بالواقع معتمدا تفسيره المجموع في كتاب : "بدائع التفسير" وأضفت عليه بعض المواضع التي لم يشملها الكتاب المذكور، فبلغت (٥٦) موضعاً كانت هي محل الدراسة ، وجعلت عنوان بحثي :(**تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن القيم –رحمه الله-)** ، وشملت خطة البحث الآتي:

القسم الأول : الدراسة النظرية، وتضمنت الآتي :

أولاً: مقدمات تمهيدية .

ثانياً: تعريف موجز بالإمام ابن القيم وعصره .

ثالثاً: عناية المفسرين بتنزيل الآيات على الواقع .

رابعاً: تأصيل مسألة (تنزيل الآيات على الواقع) عند الإمام ابن القيم .

خامساً: الملامح العامة لمنهج الإمام ابن القيم في تنزيل الآيات على الواقع .

القسم الثاني : الدراسة التطبيقية ، وتضمنت:

- أبرز القضايا في عصر ابن القيم وتنزيله الآيات عليها .

ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات ، وأتبعتها بذكر قائمة المصادر والمراجع ، وفهرس الآيات التي عُني بها ابن القيم ، وفهرس الموضوعات.

وبعد التطواف في تفسير الإمام ابن القيم -رحمه الله- وجمع المواضع التي عني فيها بتنزيل الآيات على الواقع والوقوف على شيء من فقهه وعلمه بكتاب الله تعالى، خلصت إلى النتائج الآتية :

١) القرآن الكريم منهج حياة، ومحور نجاة، لمن أراد السعادة والريادة في كل زمان ومكان .

٢) تنزيل الآيات على الواقع جانب مهم في تفسير القرآن وتقريب معانيه للأفهام .

٣) عناية المفسرين -قديماً وحديثاً- بتنزيل الآيات على الواقع، والمقارنة بين الأحداث المستجدة في عصورهم وما يناسبها من آيات القرآن وتوجيهاته .

٤) تفاوت المفسرين في تنزيلهم الآيات على الواقع قلة وكثرة، تصريحاً وتلميحاً، بحسب مناهجهم التفسيرية، أو قوة الأحداث وشدة الوقائع والنوازل .

٥) ارتباط مسألة تنزيل الآيات على الواقع بعدد من قواعد التفسير ومسائل علوم القرآن .

٦) عناية الإمام ابن القيم -رحمه الله- بتنزيل الآيات على الواقع : تأصيلاً له وتنظيراً، وعملاً به وتطبيقاً .

٧) للإمام ابن القيم -رحمه الله- منهج خاص في تنزيل الآيات على الواقع، سلك فيه أسلوب التصريح أحياناً، والتلميح غالباً .

٨) تنوع الموضوعات التي عني فيها الإمام ابن القيم بتنزيل الآيات على الواقع حتى شملت الجوانب العقدية والسياسية والاجتماعية والأحوال العامة، وغيرها .

٩) انضبط "تنزيل الآيات على الواقع" عند الإمام ابن القيم -رحمه الله- بالنص القرآني، من غير تكلّف أو إفراط أو تفريط .

هذا وأسأل الله تعالى أن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن العظيم، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه سميع مجيب .

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ، وبعد :

فقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم منهجاً للعباد، يحكمون به حياتهم ، ويضبطون به تصرفاتهم ، ويحتكمون إليه في معاملاتهم ، ويطبقونه واقعاً عملياً في جميع شؤونهم، حتى يكون محياهم كله لله عز وجل :[قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين • لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين](١) .

وكثيراً ما نقرأ القرآن الكريم ونغفل ربطه بواقع حياتنا، ونفصل بينه وبين أعمالنا وننسى تطبيقه على أحوالنا، وتبعاً لذلك فقد وجد في المسلمين من يقرأ القرآن طلباً لبركته فقط دون أن يفهم معانيه، ووجد من يقرؤه هذّاً بلسانه ولا يعقل سوى مبانيه، وأسوأ منه من يقرؤه على أنه ماضٍ انتهى، وحكايات تتلى لا علاقة لها بواقعه وأحواله .

ولقد عني أهل العلم قديماً وحديثاً بتدبر القرآن العظيم وتأمل آياته، والوقوف عند أحكامه وتوجيهاته، واستنباط العلاقة بين الواقع وحكمه وهداياته، وكان من الأئمة الأعلام، والعلماء الكرام، الذين عاشوا حياتهم بالقرآن ومع القرآن فقهاً وفهماً، وتدبراً وعلماً، وتطبيقاً وعملاً؛ الإمام المبارك: شمس الدين، أبو عبدالله، محمد بن أبي بكر الزرعي، المشهور بـ"ابن القيم" [ت ٧٥١هـ] رحمة الله عليه .

وقد قام الأستاذ الفاضل/ يسري السيد أحمد بجمع كلام ابن القيم في التفسير في كتاب طبع في خمسة مجلدات سمّاه: "بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن قيم الجوزية" جزى الله جامعه خير الجزاء، وجعله في موازين حسناته، فهو جهد مبارك، وجمع موفق، سوى أنه فاته شيء يسير له تعلق بموضوع الكتاب، كما أنه أدخل فيه بعض كلام من "الفوائد المشوّق" وهو لابن النقيب وقد طبع منسوباً خطأً لابن القيم(٢) .

وأثناء استعراض بعض موضوعات التفسير لفت نظري عنوان رسالة :(تطبيق الآيات على الوقائع المعاصرة من خلال تفسير المنار ومجالس التذكير والظلال) أعدها

---

(١) الأنعام : ١٦٢-١٦٣ .

(٢) انظر مقدمة "جلاء الأفهام" ص: ٦٠ .

الباحث : عبد العزيز الضامر ، في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى ، فرأيت أن أبحث هذا الموضوع معتمداً تفسير الإمام ابن القيم -رحمه الله- المجموع في "بدائع التفسير" وأضيف عليه بعض المواضع التي لم يشملها الكتاب المذكور، وجعلت عنوان بحثي :(**تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن القيم -رحمه الله-**) وبعد تتبع وتدقيق للمواضع ذات العلاقة بموضوع البحث خلص لديّ (٥٦) موضعاً كانت هي موطن الدراسة في هذا البحث، وجعلت منهجي فيه على النحو الآتي :

١- تتبعت كتاب "بدائع التفسير" واستقرأت المواضع ذات العلاقة بالبحث والتي بلغت (٥٦) موضعاً كما تقدم .

٢- درست المواضع المذكورة دراسة موضوعية لاستنباط المسائل المتعلقة بالبحث .

٣- صنفت المواضع التي جمعتها حسب موضوعاتها ودلالاتها .

٤- قسمت البحث إلى قسمين: أحدهما للدراسة النظرية، والآخر للدراسة التطبيقية .

٥- عرفت بموضوع البحث وأهميته وفائدته .

٦- عرفت بإيجاز بالإمام ابن القيم وعصره لعلاقته بموضوع البحث .

٧- أشرت إلى عناية بعض المفسرين بتنزيل الآيات على الواقع ومنهم ابن القيم .

٨- استنبطت الملامح العامة لمنهج ابن القيم في تنزيل الآيات على الواقع .

٩- حصرت أبرز القضايا في عصر ابن القيم ثم أوردت الآيات التي أنزلها عليها .

١٠- وثّقت كلام ابن القيم من كتاب (بدائع التفسير) مع الإشارة إلى المواضع في كتبه الأصلية .

١١- ختمت البحث بذكر أهم النتائج والتوصيات، ثم فهرس المراجع والمصادر .

وتبعاً لذلك فقد كانت خطة البحث على النحو الآتي :

القسم الأول : الدراسة النظرية، وتضمنت الآتي :

أولاً: مقدمات تمهيدية .

ثانياً: تعريف موجز بالإمام ابن القيم وعصره .

ثالثاً: عناية المفسرين بتنـــزيل الآيات على الواقع .

رابعاً: تأصيل مسألة (تنـــزيل الآيات على الواقع) عند الإمام ابن القيم .

خامساً: الملامح العامة لمنهج الإمام ابن القيم في تنـــزيل الآيات على الواقع .

القسم الثاني : الدراسة التطبيقية ، وتضمنت:

أبرز القضايا في عصر ابن القيم وتنـــزيله الآيات عليها .

ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات ، وأتبعتها بـــذكر قائمـــة المصادر والمراجع وفهرس الآيات التي عُني بها ابن القيم وفهرس الموضوعات.

هذا وأسأل الله تعالى أن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن العظيم، وأن يجعلنا ممن يـــستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه سميع مجيب .

القسم الأول: الدراسة النظرية

أولاً: مقدمات تمهيدية :

أ) معنى (تنـــزيل الآيات على الواقع) :

المقصود بهذا العنوان : أي مقابلة الأحداث المعاصرة في زمن المفسّر وإدخاله فيما يناسبها من الآيات القرآنية(١) .

- وهذه المقابلة يمكن أن تكون بموافقة الواقعة لنص الآية كالتطبيق العملي له ، أو بمخالفة الواقعة لتوجيه الآية والإعراض عن تطبيق معانيها .

- وعلاقة هذا الجانب بكتب التفسير ظاهرة، إذ التفسير هو مظنة شرح آيات القـــرآن وبيان معانيها وربطها بواقع الناس، وضرب الأمثلة الواقعة في عصر المفسر لتقريب المعاني ومن ثم مقابلة الوقائع والأحداث وإدخالها فيما تنطبق عليه من آيات القرآن الكريم .

ب)أهمية الموضوع وفائدته :

من خلال التعريف السابق لهذا الموضوع، ندرك شيئاً من أهميته وفائدته، ومن ذلك:

١- زيادة توضيح معاني الآيات وتقريبها للأفهام والعقول ، فانطباق معنى الآية على واقع يراه الناس عياناً يزيد في إدراكهم لها وفهم معناها ورسوخه في أذهانهم .

٢- تنمية علاقة المسلم بنصوص الوحي المنـــزّل ، وربطه بكتاب الله في جميـــع أحوالـــه وتقلباته .

٣- الإسهام في إعادة صبغ الحياة العامة بالصبغة القرآنية ليكون منهج حياة الأمة .

٤- لفت النظر إلى ضرورة الاحتكام لكتاب الله تعالى والحذر من مخالفة أمره .

٥- تربية الأجيال على العيش في جو القرآن والعناية بتوجيهاته وهداياته .

(١) انظر (تطبيق الآيات على الوقائع المعاصرة) ص: ٢٧ .

٦- إحياء منهج السلف بدءاً بالنبي e وأصحابه الكرام في الرجوع إلى القرآن الكـــريم والتخلق بأخلاقه والوقوف عند آياته .

٧- التأكيد على شمول كتاب الله تعالى لجميع أحداث الحياة ، وأنه ما من نازلة تـــترل إلاّ ويجد المسلم في القرآن هداية له فيها ، كما قال تعالى: "ما فرطنا في الكتاب من شيء"[١]

(١) الأنعام : ٣٨

ثانياً: تعريف موجز بالإمام ابن القيم، وعصره :

أ) ترجمة موجزة للإمام ابن القيم -رحمه الله-[١] :

- هو أبو عبدالله، شمس الدين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي الحنبلي .

- ولد سنة ٦٩١هـ بدمشق، ونشأ في بيت علم ودين، وكان ذا خلق حميد، وعبادة وتهجد، وزهد وانكسار، مع فطنة وذكاء .

- تتلمذ ابن القيم طويلاً على شيخ الإسلام ابن تيمية، ومن شيوخه: أبوه أبو بكر بن أيوب وأبو العباس أحمد بن عبدالرحمن النابلسي (ت: ٦٩٧هـ)، وإسماعيل مجدالدين الحراني (ت: ٧٢٩هـ)، ومحمد شمس الدين البعلبكي (ت: ٧٠٩هـ) .

- ومن تلاميذه: الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، والعلامة أبو الفرج عبدالرحمن الشهير بابن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ) ، والعلامة محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) . وغيرهم كثير .

- بلغت مؤلفاته (٩٧) كتاباً[٢] منها: إعلام الموقعين عن رب العالمين، التبيان في أقسام القرآن، بدائع الفوائد، مدارج السالكين، زاد المعاد، الصواعق المرسلة، مفتاح دار السعادة ... الخ .

- توفي سنة ٧٥١هـ، وعمره (٦٠) سنة، فرحمة الله عليه .

ب) العصر الذي عاش فيه[٣] :

عاش ابن القيم -رحمه الله- في نهاية القرن السابع الهجري، وإلى منتصف القرن الثامن، وهي فترة مليئة بالأحداث العظام، فقد ولد والعالم الإسلامي يعاني آثار الحروب الصليبية والهجوم التتري وما نتج عنه من آثار سياسية واجتماعية ودينية وغيرها، وكانت

---

(١) ينظر في ترجمته: الدرر الكامنة ٤/ ٢١ ، شذرات الذهب ٦/ ١٦٨ ، بغية الوعاة ١/ ٦٢ .

(٢) انظر (ابن القيم: حياته وآثاره) : ص ١٩٩ فما بعدها .

(٣) ينظر في ذلك: البداية والنهاية: ٢٠٨/١٣ وما بعهدها، كتاب ابن القيم من آثاره العلمية : ص ١٦ وما بعدها .

دمشق موطن إقامته تحت حكم المماليك بعد سقوط الخلافة العباسية، ولم تكن الحالة السياسية مستقرة في عصره، فمما يدل على اضطرابها أنه تعاقب على السلطنة في حياة ابن القيم أربعة عشر سلطاناً، وكان الصراع على السلطة في دمشق على أشده، بينما قضى ابن القيم ثلاثين سنة من عمره في حالة استقرار نسبي هي مدة حكم الناصر محمد بن قلاوون .

ولم تكن الناحية الاجتماعية أقل سوءاً من السياسية، إذ ظهر التفكك الداخلي والخلافات المذهبية ونشطت الفرق الضالة كالجهمية والقدرية الجبرية، وكذا ظهر أهل البدع من المتصوفة وعباد القبور، وكثرت الاضطرابات والفتن، ونشأت في المجتمع بعض العادات والتقاليد السيئة وجملة من المعاصي والمنكرات كالغناء وآلات اللهو والطرب وعرف الحشيش وانتشرت الرشوة والغش والاحتكار وزاد السلب والنهب، وحصل الجدب والقحط، وخيّم الفزع والفقر والجوع والغلاء مع نقص الأموال والثمرات وظهر الفساد في كثير من نواحي الحياة[١] .

ولقد أثر ذلك الواقع في حياة ابن القيم -رحمه الله- وفي مسيرته العلمية والعملية، فظهرت غيرته على دينه وأمته، واهتمامه بواقعها، وحرصه على إصلاحها والعودة بها إلى طريق النجاة، في ضوء هذا الدين القويم، وبتوجيهات كتاب الله العظيم، وسنة رسوله الكريم e ، فارتبط بنصوص الوحي في بحثه وعلمه وتوجيهاته ولم يتعصب لمذهب بل يجتهد ويستنبط، محاولاً القضاء على الفرقة والخلاف المذموم، وجمع كلمة المسلمين على الكتاب والسنة[٢] .

ومن جهة أخرى فقد أنكر ابن القيم مظاهر الشرك والبدع والفساد بيده ولسانه وقلمه، فألف المؤلفات في الرد على الطوائف المخالفة، كرده على الجهمية والمعطلة في (اجتماع الجيوش الإسلامية) و (الصواعق المرسلة)، وكتب (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) لبيان حكم كثير من المنكرات والمخالفات، وخص مسائل منها بتآليف مفردة

---

(١) انظر (اجتماع الجيوش الإسلامية): ١/ ٢٥-٤٢ .

(٢) انظر مقدمة إعلام الموقعين: ١/ خ .

مثل (الكلام على مسألة السماع) ، ولا يخفى عنايته الفائقة بطب القلوب وشفاء النفوس من خلال كتبه المتميزة مثل (مدارج السالكين) و (روضة السالكين) و (مفتاح دار السعادة) و (عدة الصابرين) و (حادي الأرواح) و (الروح) وغيرها .

ولا شك ومع وجود تلك الظواهر السلبية وتأثيرها على حياة ابن القيم، إلا أن هناك صوراً إيجابية في الدولة المسلمة، فشريعة الله حاكمة غالباً، وعامة المجتمع المسلم متراحم مترابط، مع سعة رقعة بلاد الإسلام، وانتشار العلم والعلماء، واهتمام المماليك ببناء المدارس والمساجد والجوامع، التي كانت منارات علم وهدى وأسهمت في حفظ دين الأمة وكيانها، ومنها ظهرت القيادات العلمية كابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ، وابن القيم ، والذهبي (ت ٧٤٨هـ)، والصفدي (ت ٧٦٤هـ) ، وابن كثير (ت ٧٧٤هـ) وغيرهم(١) .

إذاً فالإمام ابن القيم -رحمه الله- عاش عصره، وعرف واقعه، وتأثر بذلك كما يظهر لنا من خلال آثاره ومصنفاته .

---

(١) انظر اجتماع الجيوش الإسلامية ١/ ٤٣-٤٨ .

ثالثاً: عناية المفسرين بتنــزيل الآيات على الواقع :

لقد عني جمع من المفسرين -قديماً وحديثاً- بذكر أمثلة ونماذج تطبيقية يقرنــون فيها بين الآيات القرآنية وبعض الوقائع المعاصرة لهم إشارة منهم إلى أن معنى الآية ينطبــق على تلك الواقعة، أو أن ما حدث في الواقع يخالف التوجيه القرآني .

وما أورده المفسرون في هذا الباب يتفاوت قلة وكثرة، وتصريحاً وتلميحاً، لكنــه يدل بجلاء على اتفاق المفسرين على أن نصوص القرآن العظيم صالحة للتطبيــق في كــل زمان ومكان، وأن العبرة فيه بعموم ألفاظه، ولعلّ هذا يفسّر لنا عدم إكثارهم مــن هــذا الأمر، أو عدم إفرادهم له كتباً ومؤلفات ، ذلك أن القرآن كلّه أصول وكليات تنــدرج تحته جميع الفروع والجزئيات ، تصديقاً لقول الله سبحانه وتعالى :[ما فرطنا في الكتــاب من شيء][1] ونحوها من الآيات ، فهو منهج حياة يحكم كل صغير وكبير من شــؤون الناس الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها ، وعليه فالواقع كلّــه إمــا أن يكون موافقاً لهدي القرآن وتوجيهه وما تضمنه من أصول وكليات عامة، أو أن يكــون مخالفاً للقرآن وأحكامه ، وغالب المفسرين إنما قصدوا توضيح الآيات وتقريــب المعــاني واستنباط الهدايات والأحكام والتوجيهات ليسهل العمل بها وتطبيقها في واقع الحياة، ولم يقصدوا إدراج الوقائع واستقصاء الأحداث التي تنطبق عليها كل آية من القرآن لكثرتهــا وتنوعها وتعدد مجالاتها ، وأما ما أورده المفسرون من تنــزيل لبعض الآيات على وقــائع معينة فإنما كان على سبيل المثال والتقريب لا الحصر ، أو لعظم ذلك الحدث وشدة تأثيره ، ناهيك عن أن (فتاوى العلماء) وكتب (النوازل) قد حوت كثيراً من تتريل الآيات على الوقائع.

وعلى الرغم من ذلك فقد حوت كتب التفسير أمثلة عمد فيها المفسّر إلى ربط الآيات بواقعه تصريحاً أو تلميحاً، وسأورد هنا شيئاً من الأمثلة عن بعــض التفاســير المشهورة :

---

(١) الأنعام : ٣٨ .

١) أحكام القرآن لابن العربي (ت ٥٤٣هـ) :

أورد قوله تعالى :[وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ...][١] الآية .

ثم قال عنها :[وهي من الآيات الأصول في الشريعة، ولم نجد لها في بلادنا أثراً، بل ليتهم يرسلون إلى الأمينة[٢]، فلا بكتاب الله ائتمروا، ولا بالأقيسة احتذوا، وقد ندبت إلى ذلك فما أجابني إلى بعث الحكمين عند الشقاق إلا قاض واحد، ولا إلى القضاء باليمين مع الشاهد إلا قاض آخر، فلما ولاّني الله الأمر أجريت السنة كما ينبغي، وأرسلت الحكمين، وقمت في مسائل الشريعة كما علمني الله سبحانه من الحكمة والأدب لأهل بلدنا لما غمرهم من الجهالة] أهـ[٣] .

ففي هذا الموضع قارن الإمام ابن العربي بين واقعة وبين الحكم الشرعي المنصوص عليه في الآية، وبيّن مخالفة قضاة عصره لهذا التوجيه القرآني الكريم، ومن ثم ذكر تطبيقه للحكم في عصره .

٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (ت ٥٤٦هـ) :

وقد أشار في عدد من المواضع إلى أمثلة موجودة في عصره وطبّق عليها الآيات المفسرة، منها عند قوله تعالى :[من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ...] الآية[٤] ، حيث قال :[وهذا اللّي باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتى الآن في بني إسرائيل، ويحفظ منه في عصرنا أمثلة، إلاّ أنه لا يليق ذكرها بهذا الكتاب] أهـ[٥] .

---

(١) النساء : ٣٥ .

(٢) أي يجعلان على يدي أمين (كما في القرطبي) : ٥/ ١١٧ .

(٣) أحكام القرآن : ١/ ٤٢١ .

(٤) النساء : ٤٦ .

(٥) المحرر الوجيز : ٢/ ٦٢ .

٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت: ٦٧١هـ) :

وقد حوى أمثلة كثيرة تحمل تطبيقات معاصرة للتوجيهات القرآنية، من ذلك تعليقه على قول الله تعالى :[كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله][١] .

حيث قال :[وفي قولهم رضي الله عنهم "كم من فئة قليلة" الآية ، تحريض على القتال واستشعار للصبر واقتداء بمن صدّق ربه . قلت: هكذا يجب علينا نحن أن نفعل، لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير من قدام اليسير من العدو، كما شاهدناه غير مرة، وذلك بما كسبت أيدينا] أهـ[٢] .

ومنها تعليقه عند قول الله تعالى :[وإذا بطشتم بطشتم جبارين][٣]، حيث قال :[وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة، لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية، فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق] أهـ[٤] .

٤) البحر المحيط : لأبي حيان (ت: ٧٥٤هـ) :

وفيه إشارات عديدة لتنزيل الآيات على الواقع، من ذلك حين أورد قول الله تعالى :[إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ...] الآية[٥] . حيث قال في تفسيرها :[أي متوانين لا نشاط لهم فيها لأنهم إنما يصلّون تستراً وتكلفاً، وينبغي للمؤمن أن يتحرز من هذه الخصلة التي ذم المنافقون وأن يقبل إلى صلاته بنشاط وفرغ قلب وتمهل في فعلها ولا يتقاعس عنها فعل المنافق الذي يصلي على كره لا عن طيب نفس ورغبة، ومازال في كل عصر منافقون يتسترون بالإسلام ويحضرون الصلوات كالمتفلسفين الموجودين في عصرنا هذا] أهـ[٦] .

---

(١) البقرة : ٢٤٩ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن : ٣/ ١٦٦ .
(٣) الشعراء: ١٣٠ .
(٤) الجامع لأحكام القرآن : ١٣/ ٨٤ .
(٥) النساء : ١٤٢ .
(٦) البحر المحيط : ٣/ ٣٩٣ .

- قول الله تعالى :[وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها][1] أشار إلى أن المغانم المذكورة هي ما سيحصله المؤمنون من مغانم إلى يوم القيامة ثم قال :[ولقد اتسع نطاق الإسلام، وفتح المسلمون فتوحاً لا تحصى، وغنموا مغانم لا تعد، وذلك في شرق البلاد وغربها، حتى في بلاد الهند وفي بلاد السودان في عصرنا هذا، وقدم علينا حاجاً أحد ملوك غانة من بلاد التكرور وذكر عنه أنه استفتح أزيد من خمسة وعشرين مملكة من بلاد السودان وأسلموا وقدم علينا ببعض ملوكهم يحج معه] أهـ[2] .

٥) تفسير ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ) :

ومن أمثلة ما فيه كلامه -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى :[أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون][3] حيث قال :[ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم "جنكيزخان" الذي وضع لهم (الياسق) وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعاً متبعاً يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله e ..] الخ كلامه[4] .

ولعل ما ذكر من أمثلة فيه الكفاية لبيان إيراد المفسرين قديماً تنزيل الآيات على الواقع ، وربطهم للأحداث المستجدة بتوجيهات الوحي القرآني، وأما كتب التفسير

(١) الفتح : ٢٠ .
(٢) البحر المحيط : ٨/ ٩٦ .
(٣) المائدة : ٥٠ .
(٤) تفسير ابن كثير : ٢/ ٦٧ .

المعاصرة فقد حوت شيئاً كثيراً من هذا النوع، بل قد ألفت في ذلك الكتب والرسائل مما يغني عن ذكرها[١] .

ويظهر مما تقدم بعض الملامح العامة لعناية المفسرين بتنـــزيل الآيات على الواقع ومنها:

١- معرفة المفسرين بقضايا عصرهم ومستجدات واقعهم .

٢- فقه المفسرين في ربط قضايا عصرهم بنصوص الوحي وتنـــزيل الآيات على الواقع .

٣- تنوع الموضوعات والقضايا حيث شملت الجوانب السياسية والاجتماعيـــة والدينيـــة والأحوال العامة وغيرها .

٤- التصريح المباشر من قبل أكثر المفسرين في تنـــزيل الآيات على الواقع .

---

(١) ينظر على سبيل المثال رسالة :(تطبيق الآيات على الوقائع المعاصرة من خلال: المنار ومجالس التذكير والظلال) .

رابعاً : تأصيل مسألة تنزيل الآيات على الواقع عند الإمام ابن القيم :

سبقت الإشارة إلى أني وقفت على (٥٦) موضعاً تطبيقياً عني فيها الإمام ابن القيم -رحمه الله- بتنـــزيل الآيات على الواقع، غير أن الإمام ابن القيم أشار في عدة مواضـــع إلى تأصيل هذه المسألة والتنبيه عليها والتذكير بها، وربطها ببعض قواعد التفسير، مما يؤكد عنايته بهذا الأمر، ويظهر ذلك من خلال أقواله وتقريراته ، فيما يلي :

١) إنكاره على من فصل بين القرآن والواقع :

فبعد تفسيره لقول الله تعالى :**[** قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكـــون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ... **]** الآية[1] . قال :[فكفى بهذه الآية نـــوراً وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها . والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحتـــه وتـــضمنه لـــه، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل لم يعقبوا وارثاً، وهذا هو الذي يحـــول بـــين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك **]** أهـــ[2] .

فهذا القول المختصر للإمام ابن القيم -رحمه الله- يبرز منهجه ورأيه في المسألة التي هـــي محل البحث (تنـــزيل الآيات على الواقع) ويمكن أن نستخلص من كلامه المذكور بعـــض آرائه في هذه المسألة ومن ذلك :

- أن الواقع يدخل تحت نصوص القرآن وتوجيهاته وهداياته ويتضمنه لا محالة .
- الإنكار على من يظن أن الواقع لا يدخل ضمن نصوص القرآن أو أن تلك النـــصوص محددة بزمن قد انتهى .
- أن هذا الظن يحول بين القلب وبين الاستفادة من القرآن الكريم .
- أنه لا تزال طائفة تظن هذا الظن السيء بكتاب الله تعالى وتفصل بينه وبين واقع الناس وشؤون حياتهم .

---

(١) سبأ : ٢٢ .

(٢) بدائع التفسير: ٣/ ٤٣٥ ، وانظر مدارج السالكين : ١/ ٢٨٩ .

٢) تأكيده على أن العبرة بعموم اللفظ وأن تنـــزيل النصوص على الواقع هو الفقه في الدين :

ويوضح ذلك أنه أورد سبب نزول قوله تعالى [الـــزاني لا يـــنكح إلا زانيـــة أو مشركة][١] وقول من قال إنه عام اللفظ خاص المعنى ... ثم قال :[وهذا أيضاً فاســـد، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النـــزول، فالقرآن لا يقتصر بـــه علـــى محـــال أسبابه، ولو كان ذلك لبطل الاستدلال به على غيرها] أهـــ[٢] .

ويفهم من هذا أنّه لابد من تطبيق معنى الآية على جميع الصور المشابهة للواقعة التي نزلت بشأنها ، وعدم قصرها على الحادثة محل السبب .

وقال في موضع آخر :[والفقه تنـــزيل المشروع على الواقع][٣] أي تنـــزيل نـــصوص الشرع على واقع الحال .

ونستنبط من كلام ابن القيم السابق ما يلي :

- أنّ هناك علاقة وثيقة بين قاعدة :(العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) ومـــسألة تنـــزيل الآيات على الواقع المعاصر .
- أن دعوى تخصيص معاني القرآن بعصر معيّن أو حادثة فردية مذهب فاسد، ويؤدي إلى تعطيل النصوص الشرعية وبطلان الاستدلال بها .
- اعتباره أن من الفقه في الدين تنـــزيل النصوص الشرعية على الواقع .

٣) تقريره أن خطاب القرآن عام لمن بلغه ومتناول لمن أتى بعد عصر الرسول e :

وبيان ذلك أنه لما فسّر سورة التكاثر وأورد قول من قال في قولـــه تعـــالى :[ثم لتسألن يومئذ عن النعيم][٤] إنه خاص بالكفار ورد عليه بما صحّ في السنة النبوية حـــين قال النبي e لأبي بكر وعمر-رضي الله عنهما- : (والذي نفسي بيديه لتسألن عن هذا

---

(١) النور : ٣ .
(٢) بدائع التفسير : ٣/ ٢٤٤ ، إغاثة اللهفان : ١/ ٦٥ .
(٣) زاد المعاد : ٥/ ٤٧٢ .
(٤) التكاثر : ٨ .

النعيم يوم القيامة)[١] علّق فقال :[فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار، وأيضاً فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر . وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرون لرسول الله e ، فهو متناول لمن بعدهم . وهذا معلوم بضرورة الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين .

فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى :[يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام][٢] ونظائره، كما دخل تحته الصحابة -رضي الله عنهم- بالضرورة المعلومة من الدين] أهـ[٣] .

وهذا النص من كلام ابن القيم -رحمه الله- واضح غاية الوضوح في تقرير مسألة (تنزيل الآيات على الواقع) حيث نلمح منه الآتي :

- تأكيده على أن خطاب القرآن الكريم عام لكل من بلغه .
- استشهاده بواقع الحال على تحقق ما جاء في الآيات التي فسّرها .
- أن أول من يدخل في الخطاب القرآني : المعاصرون للنبي e وهو متناول لمن بعدهم .
- اعتباره أن هذه المسألة من المعلوم بالضرورة من الدين .
- تقريب المعنى بضرب المثل بآية الصيام التي شمل حكمها الصحابة -رضي الله عنهم- الذين نزلت في عصرهم كما شملت كل من جاء بعدهم .

٤) حثه على تنـزيل الآيات على الواقع :

وهذا ظاهر في تفسيره لعدد من الآيات، ومن أمثلتها كلامه عند الآيات التالية :

- قوله تعالى :[ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس][١] حيث قال :[نزّل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث من تلك الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان] .. الخ كلامه[٢] .

---

(١) أخرجه مسلم: ٤/ ٧٢١ .

(٢) البقرة ١٨٣ .

(٣) بدائع التفسير ٥/ ٣١٧ ، عدة الصابرين ١٩١ .

- قوله تعالى :[يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم • وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون • فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون](٣) .

قال -رحمه الله- :[فمضت الرسل وأتباعهم على ذلك ممتثلين لأمر الله قابلين لرحمته، حتى نشأت خلوف قطّعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون، فمن تدبر هذا الآيات ونزّلها على الواقع تبيّن له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان] أهـ(٤) .

قوله تعالى :[أفلم يدّبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباؤهم الأولين • أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ...] الآيات(٥) .

قال :[والناصح لنفسه العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها، ويتأملها حق تأملها، وينزلها على الواقع: فيرى العجب، ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا ، فالحديث لك واسمعي يا جارة، والله المستعان] أهـ(٦) .

- قوله تعالى :[قل أعوذ برب الفلق • من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب • ...] الآيات(٧) .

قال :[فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شرّ الظلمة، ومن شر ما يحدث فيها، ونزّل هذا المعنى على الواقع : يشهد بأن القرآن، بل هاتان السورتان، من أعظم أعلام النبوة، وبراهين صدق رسالة محمد e ...](٨) الخ كلامه .

---

(١) الروم : ٤١ .

(٢) بدائع التفسير ٣/ ٣٩٤ ، زاد المعاد ٤/ ٣٦٣ .

(٣) المؤمنون : ٥١-٥٣ .

(٤) بدائع التفسير : ٣/ ٢٣٣ ، إعلام الموقعين : ٢/ ١٦١ .

(٥) المؤمنون : ٦٩-٧٠ .

(٦) مدارج السالكين: ٢/ ١١٨ .

(٧) الفلق : ١- ٣ .

(٨) بدائع التفسير ٥/ ٤٠٢ .

ويظهر في هذه النقول من كلام الإمام ابن القيم -رحمه الله- عدة أمور منها:

- تنصيصه على مسألة (تنـــزيل الآيات على الواقع) وإطلاقه هذه التسمية عليها .
- حثه قارئ القرآن على ربط آيات القرآن بالواقع وحقيقة الحال، وتكرار ذلك منه في عدة مواضع .
- تطبيقه لهذه المسألة عملياً وضرب الأمثلة عليها كما في آية سورة الروم وكما سيأتي في الدراسة التطبيقية .
- ربطه بين تدبر القرآن وتأمل آياته وبين مسألة تنـــزيل الآيات على الواقع .

خامساً : ملامح عامة لمنهج الإمام ابن القيم في تنــزيل الآيات على الواقع :

من خلال ما تقدم من أقوال ابن القيم وتأصيله لمسألة (تنــــزيل الآيــات علــى الواقع)، وبالنظر إلى النماذج التطبيقية التي وقفت عليها من كلامه -رحمه الله- ، يمكن أن تستخلص الملامح العامة لمنهجه في هذه المسألة وذلك على النحو الآتي :

١ - أنه سلك في طريقة تنــزيل الآيات على الواقع أسلوبين رئيسين :

أ) التصريح المباشر : وهذا يظهر من دعوته وحثه الواضح على هذا الأمر -كما تقدمت أقواله في ذلك- إضافة إلى العبارات التي استخدمها في التطبيق كقوله :(وقد شاهدنا نحن وغيرنا كذا وكذا)[١] وقوله :(ورأيته في بلد كذا وناظرت فضلاءهم ...)[٢] وقولــه (ولقد حدثني رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء ...)[٣]

ب) التلميح والتعريض : وهذا الأغلب في طريقته، حيث يشير أثناء تفسيره للآيــات إلى أقوام مخالفين لما في الآية من التوجيهات والمعاني، كتعريضه بأصحاب الرياســات الــذين يصدون عن الحق ويعارضونه ويكيدون له في سبيل إقامة رئاساتهم[٤]، وكــذا تعريــضه بأصحاب الخيالات والجهالات[٥] وأهــل البــدع والــضلالات، وأفــراخ الفلاســفة والملاحدة[٦] .

٢ - استخدامه لصيغ عديدة في تنــزيل الآيات على الواقع، مثل:

قوله :(وهذا حال أكثر الخلق ...)[٧] .

وقوله :(ومن تأمل أحوال العالم ...)[٨] .

---

(١) انظر بدائع التفسير ١/ ٢٧٢ ، إعلام الموقعين ١/ ١١٧ .

(٢) انظر بدائع التفسير ١/ ٣٥٦ ، بدائع الفوائد ٤/ ١٧٢ .

(٣) انظر بدائع التفسير ٢/ ٢٣٠ ، بدائع الفوائد ٣/ ٢٩ .

(٤) انظر بدائع التفسير ١/ ١٥٥ ، مدارج السالكين ١/ ٦١ .

(٥) انظر بدائع التفسير ١/ ١٤٦ ، مدارج السالكين ١/ ٤٨ .

(٦) انظر بدائع التفسير ٣/ ١٥٨ ، شفاء العليل ٧٩ .

(٧) انظر بدائع التفسير ١/ ٢٧٧ ، اجتماع الجيوش الإسلامية ١٢-١٦ .

(٨) انظر بدائع التفسير ٣/ ٣٧٢ ، زاد المعاد ٣/ ١٦ .

وقوله :(من نظر في أحوال عصره ...)[١] .

وقوله :(نزّل هذه الآية على أحوال العالم وطابق بين الواقع وبينها ...)[٢] .

وقوله :(فمن تدبر هذه الآية ونزّلها على الواقع ...)[٣] .

ومنها صيغ غير صريحة تناسب الأسلوب الثاني ، مثل:

قوله :(فأين هذا ممن وصفه ...)[٤] .

وقوله :(لا كما يقول الفلاسفة ...)[٥] .

وقوله :(وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة ...)[٦] .

٣) غلب على تطبيقاته العموم فهو يشير فيها إما إلى أحوال الناس العامة أو إلى مذاهب وطوائف، أو إلى عادات وأعراف ، ويربط بينها وبين معاني الآيات التي يفسّرها .

ومن أمثلة ذلك :

قوله :(وهذا من أظهر الأشياء إبطالاً لقول القدريّة النفاة ...)[٧] .

وقوله :(كما أن المنحرفين من أهل الإرادة لما لم تطهر قلوبهم تعوضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني ...)[٨] .

وقوله :(فكثير من الناس يرضى بالله رباً ولا يبغي رباً سواه، لكنه لا يرضى به وحده ولياً وناصراً ...)[١] .

(١) انظر بدائع التفسير ٥/ ٣٨٤ ، بدائع الفوائد ٢/ ٢٠٥ .

(٢) انظر بدائع التفسير ٣/ ٣٩٤ ، زاد المعاد ٤/ ٣٦٣ .

(٣) انظر بدائع التفسير ٣/ ٢٣٣ ، إعلام الموقعين ٢/ ١٦١ .

(٤) انظر بدائع التفسير ٥/ ١٣٧ ، المنار المنيف ٣٨ .

(٥) انظر بدائع التفسير ٥/ ١٣٧ ، التبيان في أقسام القرآن ١٢٦ .

(٦) انظر بدائع التفسير ٥/ ١٦٩ ، التبيان في أقسام القرآن ٨٨ .

(٧) انظر بدائع التفسير ١/ ٥٢٥ ، زاد المعاد ٣/ ٢٣٧ .

(٨) انظر بدائع التفسير ٢/ ١١٠ ، إغاثة اللفهان ١/ ٥٥ .

وقوله :[ولا تجد ظالماً فاجراً إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته][٢] .

٤) غالب التطبيقات التي عني فيها ابن القيم بتنزيل الآيات على الواقع هي من قبيل مخالفة الواقع لمعنى الآية، حيث كان أكثرها في سياق الرد على أهل الأهواء المعرضين عن منهج الوحي، ومن أمثلته :

- عند قوله تعالى :**[** ادعوا ربكم تضرعاً وخفية **]**[٣] حيث قال :[وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم، فوقعوا في أنواع الطامات والشطح ...][٤] .

- في قوله تعالى :**[** ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن **]**[٥]، حيث قال :[والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية، لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص ...] إلى قوله [فتنزيل القرآن على قوانين أهل المنطق اليوناني واصطلاحهم وذلك باطل قطعاً][٦] .

---

(١) انظر بدائع التفسير ٢/ ١٨٧ ، مدارج السالكين ١/ ٥٧٥ .

(٢) انظر بدائع التفسير ٢/ ١٩٢ ، الفوائد ٨٢ .

(٣) الأعراف : ٥٥ .

(٤) بدائع التفسير ٢/ ٢٢٧ ، بدائع الفوائد ٣/ ٢٧ .

(٥) النحل : ١٢٥ .

(٦) بدائع التفسير ٣/ ٦٤-٦٦ ، مفتاح دار السعادة ١٦٧ .

٥) تنوع الموضوعات والقضايا التي نزّل عليها الآيات حيث شملت الآتي :

أ) الجوانب السياسية : ومثاله كلامه عن أصحاب الرياسات[(١)] . وقوله في موضع آخر :[ومن تأمل أحوال العالم رأى هذا كثيراً فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة ...][(٢)] .

ب) الجوانب الاجتماعية : ومن أمثلته كلامه في بيان العلاقة بين الفساد الواقع في عصره وما يحدث من نقص البركات حتى قال :(ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم)[(٣)] .

ج) الجوانب العقدية : وهي من أكثر القضايا التي نزّل عليها الآيات وربطها بالنصوص القرآنية استدلالاً عليها، وتفنيداً للشبه المثارة حولها، ورداً على المخالفين فيها، ومن أمثلتها:

- كلامه في مسألة إثبات صفات الله تعالى في مواضع عدة[(٤)]، منها:

عند قوله تعالى :**[** صم بكم عمي فهم لا يرجعون **]**[(٥)] حيث قال :[وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيراً من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة إذا سمعوا شيئاً من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم، رأيتهم معرضين][(٦)] .

- عند قوله تعالى :**[** ليس كمثله شيء وهو السميع البصير **]**[(٧)] قال :[فمن تدبر هذا الفصل حق التدبر تبيّن له كيف وقعت الفتنة في الأرض بعباده الأصنام، وتبين له سر القرآن في الإنكار على هؤلاء المشبهة الممثلة و لا سيما إذا جمعوا إلى هذا التشبيه تعطيل

---

(١) انظر بدائع التفسير ١/ ١٥٥ ، مدارج السالكين ١/ ٦١ .

(٢) بدائع التفسير ٣/ ٣٧٢ ، زاد المعاد ٣/ ١٦ .

(٣) بدائع التفسير ٣/ ٣٩٤ ، زاد المعاد ٤/ ٣٦٣ .

(٤) انظر على سبيل المثال : بدائع التفسير : ١/ ٢٧٣ ، ٥٢٠ ، ٥٢٥ ، ٣/ ٢٢٢، ٤/ ١٢ وغيرها .

(٥) البقرة : ١٨ .

(٦) بدائع التفسير ١/ ٢٧٢ ، إعلام الموقعين ١/ ١١٧ .

(٧) الشورى : ١١ .

الصفات والأفعال كما هو الغالب عليهم، فيجمعون بين تعطيل الرب سبحانه عن صفات كماله وبين تشبيه خلقه به][١] .

د) جانب الإعجاز العلمي القرآن الكريم : ومن أمثلته :

- في قوله تعالى :**[** لتركبن طبقاً عن طبق **]**[٢] وكلامه عن مراحل تكوين الجنين وانفصاله عن رحم أمه، ومما قال :[... وقد اعترف بذلك حذاق الأطباء والمشرحين ...][٣] .

- عند قوله تعالى :**[** والسماء ذات البروج **]**[٤] حيث قال :[... وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته، فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء، والشكل الكري لا يتميز منه جانب عن جانب بطول ولا قصر ولا وضع، بل هو متساوي الجوانب، فجعل هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها ...] إلى أن قال [وهذا ونحوه مما يهدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة][٥] .

هـ) الأحوال العامة : ومن ذلك ما تفشى من التفرق وكثرة الخلاف حيث أشار إلى هذا الحال عند تفسيره لقول الله تعالى :**[** فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون **]**[٦] فقال :[فمن تدبر هذه الآيات ونزلها على الواقع تبين له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان][٧] .

- ومن ذلك كلامه المتقدم عن العلاقة بين انتشار الظلم والفساد وما وقع من الآفات والعلل والنوازل، وذلك في تفسيره لقوله الله سبحانه :**[** ظهر الفساد في البر والبحر بما

---

(١) بدائع التفسير ٤/ ١١٢ ، إغاثة اللهفان ٢/ ٢٣٢ .
(٢) الانشقاق : ١٩ .
(٣) بدائع التفسير ٥/ ١٦٦ ، تحفة الودود ٢٤٨ .
(٤) البروج : ١ .
(٥) بدائع التفسير ٥/ ١٦٩ ، التبيان في أقسام القرآن ١٢٦ .
(٦) المؤمنون ٥٣ .
(٧) بدائع التفسير ٣/ ٢٣٣ ، إعلام الموقعين ٢/ ١٦١ .

كسبت أيدي الناس **]**[١] حيث قال :[نزّل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث من تلك الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان][٢] .

٦) جعل الإمام ابن القيم -رحمه الله- الحكم في "تنزيل الآيات على الواقع" والقول الفصل للكتاب والسنة، فلم يتكلف في ذلك أو يحمّل النصوص الشرعية مالا تحتمله، بل يؤكد أثناء تطبيقاته هذا المبدأ الأصيل، وينكر أشد النكير على من خالف هذا المنهج :

ومن أمثلة ذلك: كلامه في تفسير قوله تعالى :**[** أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله و لا المؤمنين وليجة **]**[٣]، حيث قال :[أي وليجة ممن اتخذ رجلاً بعينه عياراً على كلام الله ورسوله وكلام سائر علماء الأمة، يزن القرآن والسنة وكلام سائر العلماء على قوله، فما خالفه ردّه وما وافقه قبله][٤] أهـ .

٧) تضمن كلام الإمام ابن القيم في تنزيل الآيات على الواقع جملة من المواقف الشخصية التي وقعت له، وبعض القصص التي عاينها بنفسه، ولها علاقة بالنصوص الشرعية ومن أمثلة ذلك:

- في تطبيقه لقوله تعالى :**[** ولكل وجهة هو موليها **]** [٥] حيث قال :[وأما السامرة فإنهم يصلون إلى طور لهم بأرض الشام، يعظمونه ويحجون إليه، ورأيته أنا وهو في بلد نابلس، وناظرت فضلاءهم في استقباله ...][٦] الخ كلامه .

---

(١) الروم : ٤١ .
(٢) بدائع التفسير ٣/ ٣٩٤ ، زاد المعاد ٤/ ٣٦٣ .
(٣) التوبة : ١٦ .
(٤) بدائع التفسير ٢/ ٣٤٨ ، الصواعق المرسلة ٤/ ١٥٢٥ .
(٥) البقرة : ١٤٨ .
(٦) بدائع التفسير ١/ ٣٥٦ ، بدائع الفوائد ٤/ ١٧٢ .

- في كلامه عن قول الله تعالى :**[** تنـــزيل من رب العالمين **]**[١] حيث قال :[وأذكر في هذا مناظرة جرت لي مع بعض اليهود **...**][٢] الخ كلامه **.**

٨) عني الإمام ابن القيم -يرحمه الله- في تنـــزيل الآيات على الواقع بتوجيه القـــارئ ونصحه وإرشاده ووعظه ودعوته لتدبر الآيات من جهة، والتأمل في نفسه وحاله مـــن جهة أخرى، حتى يعرف حقيقة أمره ومدى قربه أو بعده عن التوجيه القرآني، وقـــدر تعظيمه للنصوص الشرعية وموقفه منها، ومن أمثلة ذلك :

- في قوله تعالى :**[** فلا يكن في صدرك حرج منه **]**[٣] بعد أن أورد صوراً عديدة لمـــن تنطبق عليهم الآية خاطب القارئ فقال :[فتدبر هـــذا المعـــنى ثم ارض لنفـــسك مـــا شئت][٤] **.**

- كلامه المتقدم عند قوله تعالى :**[** كل حزب بما لديهم فرحون **]**[٥] حيث قال :[فمن تدبر هذه الآية ونزلها على الواقع تبين له حقيقة الحال وعلم من أي الحـــزبين هـــو والله المستعان][٦] **.**

- كلامه المتقدم عند قوله تعالى :**[** أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يـــأت آبـــاءهم الأولين **...]**[٧] الآيات ، حيث قال :[والناصح لنفسه العامل على نجاتها يتـــدبر هـــذه الآيات حق تدبرها، ويتأملها حق تأملها، وينـــزلها على الواقع فيرى العجب، ولا يظنـــها اختصت بقوم كانوا فبانوا، فالحديث لك واسمعي يا جارة، والله المستعان][٨] **.**

---

(١) الحاقة : ٤٣ .
(٢) بدائع التفسير ٥/ ١٠٠ ، التبيان في أقسام القرآن ١٧٨ .
(٣) الأعراف : ٢ .
(٤) بدائع التفسير ٢/ ١٩٢ ، الفوائد ٨٢ وفيه [ثم ارض لنفسك ما تشاء] .
(٥) المؤمنون : ٥٣ .
(٦) بدائع التفسير ٣/ ٢٣٣ ، إعلام الموقعين ٢/ ١٦١ .
(٧) المؤمنون : ٦٩ .
(٨) مدارج السالكين ٢/ ١١٨ .

تلكم بعض الملامح العامة التي ظهرت لي في منهج الإمام ابن القيم -رحمه الله- في تنـــزيل الآيات على الواقع، وهذا ما تؤكده وتفصله الدراسة التطبيقية فيما سيأتي بـــإذن الله تعالى .

القسم الثاني : الدراسة التطبيقية

أبرز القضايا في عصر الإمام ابن القيم وتنـزيله الآيات عليها :

أولاً: بدع الصوفية وشطحاتها :

ذلك أن العصر الذي عاش فيه، شهد انتشاراً للتصوف ومظاهر الخرافة، فكان إنكاره لهذه البدع ملحوظاً في تنـزيل الآيات على الواقع ومن ذلك :

- في تفسير قوله تعالى :[اهدنا الصراط المستقيم][١] حيث قال :[وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات : حدثني قلبي عن ربي : فصحيح أن قلبه حدثه، ولكن عن من؟ عن شيطانه أو عن ربه ؟ ...] إلى أن قال [وأنت ترى الاتحادي والحلولي والإباحي الشطاح والسماع : مجاهراً بالقِحَة والفرية . يقول: حدثني قلبي عن ربي ، فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين . وأعط كل ذي حق حقه، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً][٢] .

- ويظهر من هذا النص ربطه بين طريق المهتدين السائرين على الصراط المستقيم، والمخالفين لهذا السبيل السالكين سبل الشياطين، مشيراً إلى تنـزيله على الواقع، داعياً القارئ إلى التفريق بين الحالين والطريقين .

- في قوله تعالى :[ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ...][٣] الآية .

فقد فسر الآية ووضح بعض صور استمتاع الإنس بالجن، ثم قال :[وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية الذين لهم كشوف شيطانية وتأثير شيطاني، فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن، وإنما هم من أولياء الشيطان . أطاعوه في الإشراك ومعصية الله، والخروج عما بعث به رسله وأنزل به كتبه فأطاعهم في أن خدمهم

---

(١) الفاتحة : ٦ .

(٢) بدائع التفسير ١/ ١٤٦-١٤٧ ، مدارج السالكين ١/ ٤٨-٤٩ .

(٣) الأنعام : ١٢٨ .

بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات، واغتر بهم من قلّ حظّه من العلم والإيمان، فوالى أعداء الله وعادى أولياءه، وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وسننه، وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وما جاء به، ولم يدعها لأقوال المختلفين، وآراء المتحيرين، وشطحات المارقين، وترهات المتصوفين . والبصير الذي نوّر الله بصيرته بنور الإيمان والمعرفة، إذا عرف حقيقة ما عليه أكثر هذا الخلق، وكان ناقداً لا يروج عليه الزغل، تبيّن له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية وهي منطبقة عليهم ...] الخ كلامه(١) .

فهنا ينص ابن القيم على انطباق الآية على أصحاب الأحوال الشيطانية من المتصوفة ومن وافقهم وصدقهم واغتر بزغلهم .

- عند قوله تعالى :[ادعوا ربكم تضرعاً وخفية](٢) حيث أشار إلى قرب العبد من ربه ومحبته لمولاه وعلاقة ذلك بإخفاء الدعاء، ثم قال مشيراً إلى بعض أفعال المتصوفة :[وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم، فوقعوا في أنواع الطامات والشطح](٣) .

- وفي كلامه عن الآية نفسها: تحدث عن ضرورة اقتران محبة الله بالخوف منه، وإلاّ لم تنفع صاحبها، بل قد تضره، وربما آلت ببعض الجهال المغرورين إلى ترك الواجبات، بحجة عبادة الله بالمحبة وحدها، ثم قال :[ولقد حدثني رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له ترك فيها حضور الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه ؟ فقال له : بلى ، فقال له: فقلب المريد أعزّ عليه من ضياع عشرة دارهم، أو كما قال، وهو إذا خرج ضاع قلبه، فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه ...] إلى أن قال ابن القيم معلقاً على القصة :[فتأمل هذا الغرور العظيم كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن

(١) بدائع التفسير ٢/ ١٨٢ ، إغاثة اللهفان ٢/ ٢٣٦ .
(٢) الأعراف : ٥٥ .
(٣) بدائع التفسير ٢/ ٢٢٧ ، بدائع الفوائد ٣/ ٢٧ .

الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة . وسبب هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته][١] .

ثانياً: نفاة صفات الله تعالى :

وهذه القضية أخذت حيّزاً كبيراً من اهتمام ابن القيم وكلامه في التفسير وتنزيله الآيات على واقع الفرق التي ضلت في هذا الباب وحادت عن الصواب، فقد وقفت على (١٢) موضعاً من كلامه في هذه المسألة[٢]، سأقتصر على نماذج منها :

- في تفسير قوله تعالى :[مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون • صم بكم عمي فهم لا يرجعون ...] إلى قوله [إن الله على كل شيء قدير][٣] حيث وصف حال المنافقين مع الوحي المنزل، إلى أن قال :[وقد شاهدنا نحن وغيرنا كثيراً من مخانيث تلاميذ الجهمية والمبتدعة إذا سمعوا شيئاً من آيات الصفات وأحاديث الصفات المنافية لبدعتهم، رأيتهم عنها معرضين :[كأنهم حمر مستنفرة • فرت من قسورة][٤]، ويقول مخنثهم: سدّوا عنّا هذا الباب، واقرؤوا شيئاً غير هذا، وترى قلوبهم مولية وهم يجمحون لثقل معرفة الرب سبحانه وتعالى وأسمائه وصفاته على عقولهم وقلوبهم ...][٥] الخ كلامه .

- في تفسير قوله تعالى :[شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ...][٦] الآية .

---

(١) بدائع التفسير ٢/ ٢٣٠ ، بدائع الفوائد ٣/ ٢٩ .
(٢) انظرها في بدائع التفسير ١/ ٢٧٣، ٤٧٧، ٥٢٠، ٥٢٥، ٢/ ١١٠، ١٩١، ٣/ ٢٢٢، ٤٠٨، ٤/ ٢١، ١١٢، ٣٦٩، ٥/ ١٤١ .
(٣) البقرة : ١٧-٢٠ .
(٤) المدثر : ٥٠-٥١ .
(٥) بدائع التفسير ١/ ٢٧٢ ، إعلام الموقعين ١/ ١١٧ .
(٦) آل عمران : ١٨ .

حيث تكلم طويلاً عما تضمنته الآية من إثبات حقيقة التوحيد، والرد على الطوائف المخالفة كالجهمية والقدرية والجبرية والاتحادية وغيرها، ثم ألمح إلى بعض ما كان يرمي به المبتدعة أهل السنة من تهم باطلة فقال :[... ومنها: الشهادة من الله سبحانه لأهل هذه الشهادة : أنهم أولوا العلم فشهادته سبحانه لهم أعدل وأصدق من شهادة الجهمية والمعطلة والفرعونية لهم بأنهم جهّال، وأنهم حشوية، وأنهم مشبهة، وأنهم مجسمة، ونوابت ونواصب، فكفاهم شهادة أصدق الصادقين لهم: بأنهم من أولي العلم](١) .

- في قوله تعالى :[ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز](٢) حيث ذكر موقف أهل الإيمان من تعظيم الله ومعرفته وعبادته ووصفه بما يليق بجلاله، ثم أشار إلى بعض من يقصّر في هذا الباب من المعطلة نفاة الصفات والمتفلسفة وأتباعهم، حيث قال :[فإنه إذا كانت السموات السبع في يده كالخردلة في يد أحدنا، والأرضون السبع في يده الأخرى، كذلك فكيف يقدّره حق قدره، من أنكر أن يكون له يدان فضلاً عن أن يقبض بهما شيئاً؟ فلا يد عند المعطلة ولا قبض في الحقيقة، وإنما ذلك مجاز لا حقيقة له، وللجهمية والمعطلة نفاة الصفات من هذا الذم أوفر نصيب، وللمتفلسفة وأفراخهم وأتباعهم ذنوب مثل ذنوب أصحابهم وأكثر](٣) .

ثالثاً : السماع والرقص والغناء :

من الواضح أن مسألة "السماع" والافتتان بأصوات الغناء والتراقص عليه كان لها انتشار كبير في عصر الإمام ابن القيم -رحمه الله- وهي من فروع التصوف وبناته، لذا فقد أولى الموضوع اهتماماً من خلال تفسيره لآيات القرآن الكريم، بل إنه ألّف مصنفاً خاصاً بالمسألة وسماه "الكلام على مسألة السماع" استدل فيه بالآيات البينات على واقع هذه المسألة وما تفرع عنها من المخالفات الشرعية، ومن كلامه في هذا الباب :

(١) بدائع التفسير ١/ ٤٧٧ ، مدارج السالكين ٢/ ٥٨١ .
(٢) الحج : ٧٤ .
(٣) بدائع التفسير ٣/ ٢٢٢-٢٢٣ ، الصواعق المرسلة ٤/ ١٣٦٤ .

- عند قوله تعالى :[قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله][(١)] قال :[فلم يقل فارقصوا وغنوا واطربوا على صوت المزامير والشبابات والألحان المطربات بالتوقعات والنغمات، فمن أضل سبيلاً ممن يدعى محبة الله، ويزعم أنه يتقرب إليه بهذا السماع الشيطاني الذي هو حظ النفس والشيطان][(٢)] .

فهنا يشير -رحمه الله- إلى بعض ما انتشر من مظاهر الرقص والغناء مما تفعله المتصوفة زاعمين به محبة رسول الله e والفرح والتقرب به إلى الله عز وجل، وحاشا لله أن تكون تلك المظاهر قربة إليه .

- في قوله تعالى :[وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية][(٣)] حيث بيّن معنى المكاء والتصدية، ثم قارن سماع المشركين بالسماع في عصره وما انضاف إليه من استخدام الآلات والرقص والحركات، فقال :[فإن المكاء هو الصفير وتوابعه من الغناء، والتصدية: التصفيق بالأيدي وتوابعه، فإذا كان هذا سماع المشركين الذي ذمه الله في كتابه، فكيف إذا اقترن بالمكاء المواصيل والشبابات، وبالتصدية الدفوف المصلصلات والرقص والتكسر والتثني بالحركات الموزونات، فكأن القوم إنما حلّ لهم المكاء والتصدية لما انضمت إليه هذه المؤكدات][(٤)] .

- في قوله تعالى :[واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير][(٥)] قال معلقاً على الآية :[فأمره أن يغض من صوته وأن يقصد في مشيه كما أمر المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم، وأصحاب السماع لا هذا ولا هذا ولا هذا، بل إطلاق البصر ورفع الصوت والرقص][(٦)] .

---

(١) آل عمران : ٣١ .
(٢) بدائع التفسير ١/ ٤٩٨ ، الكلام عن مسألة السماع ١٤٧ .
(٣) الأنفال : ٣٥ .
(٤) بدائع التفسير ٢/ ٣٣٧ ، الكلام عن مسألة السماع ٣٣٦ .
(٥) لقمان : ١٩ .
(٦) بدائع التفسير ٣/ ٤٠٧ ، الكلام عن مسألة السماع ٣٥٤ .

ويظهر من كلامه ربطه بين واقع أهل السماع في عصره ومخالفة ذلك للآية الكريمة .

رابعاً : القضايا الاجتماعية والأحوال العامة :

عني الإمام ابن القيم -رحمه الله- بتنزيل الآيات على أحوال الناس العامة في عصره، وبيان علاقتها بسنن الله تعالى في الأمم والمجتمعات، ومن أمثلة ذلك ما يلي :

- عند قوله تعالى :[يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم • وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون • فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون](١) حيث قال :[فمضت الرسل وأتباعهم على ذلك ممتثلين لأمر الله قابلين لرحمته، حتى نشأت خلوف قطّعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون، فمن تدبر هذه الآيات ونزلها على الواقع تبيّن له حقيقة الحال، وعلم من أي الحزبين هو، والله المستعان](٢) .

وكلام ابن القيم هنا فيه إشارة واضحة إلى ما آل إليه الحال في عصره من التفرق والاختلاف، ودعوته إلى السير على طريق الرسل وأتباعهم استجابة لأمر الله تعالى ومنعاً من وقوع الفرقة والخلاف .

- في قوله تعالى :[ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس](٣) قال :[نزّل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث من تلك الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلماً وفجوراً، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم وأهويتهم ومياههم وأبدانهم وخلقهم وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم

---

(١) المؤمنون : ٥١-٥٣ .

(٢) بدائع التفسير ٣/ ٢٣٣ ، إعلام الموقعين ٢/ ١٦١ .

(٣) الروم : ٤١ .

وظلمهم وفجورهم . ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم][١] .

- ويظهر من كلامه الارتباط بين السنة الكونية التي تشير إليها الآية الكريمة وبين الواقع، فقد بيّن أن تلك السنة انطبقت على واقع الحال فيما يحدث من نزول الآفات والعلل، مستشهداً بتغيّر حجم حبات الحنطة وقلة البركة فيها عما كانت عليه من قبل .

- في قوله تعالى :[ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم][٢] حيث قال :[ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم، وجد سبب ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره، وعصيان رسله . وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب][٣] .

وفي هذا النقل إشارة إلى النظر في أحوال الواقع وربطها بالآيات القرآنية والسنن الربانية، ويلمح إلى شيء مما كان في عصره من زوال النعم بسبب الذنوب والعصيان .

خامساً : القضايا السياسية :

لم يعن الإمام ابن القيم كثيراً بتنزيل الآيات على الواقع السياسي في عصره، إلا أنه له إشارات يسيرة في هذا الباب ، منها :

- في تفسير سورة الفاتحة، حيث عقد فصلاً في بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين: شفاء القلوب وشفاء الأبدان، ومما قاله :[فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسداً، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته من المشركين ومتبعي الشهوات الذين لا غاية لهم وراءها، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل، فإذا جاء الحق معارضاً في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه

---

(١) بدائع التفسير ٣/ ٣٩٤ ، زاد المعاد : ٤/ ٣٦٣ .

(٢) الأنفال : ٥٣ .

(٣) بدائع التفسير ٥/ ٣٨٤ ، بدائع الفوائد ٢/ ٢٠٥ .

دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق وحادوا عنه إلى طريق أخرى وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا وجالوا، وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم وانتصارهم به :[وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون • وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين • أفي قلوبهم مرض أم ارتابو أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون][١] ...][٢] الخ كلامه .

فهذا النص من كلام ابن القيم -رحمه الله- فيه إشارات واضحة إلى حال بعض الساسة مع الحق وموقفهم منه إذا خالف مصالحهم، والسبل التي يتبعونها لإبعاده عن طريقهم .

- كلامه عن سنة الابتلاء في قوله تعالى :[أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون][٣] حيث ذكر حال الناس مع من يخالفهم في إراداتهم وتصوراتهم، فإن وافقهم فيما يطلبون سلم منهم برهة، ثم تسلطوا عليه بالأذى والإهانة، مؤكداً أن الحزم في إرضاء الله تعالى ولو سخط الناس، ثم قال :[ومن تأمل أحوال العالم، رأى هذا كثيراً فيمن يعين الرؤساء على أغراضهم الفاسدة، وفيمن يعين أهل البدع على بدعهم هرباً من عقوبتهم، فمن هداه الله وألهمه رشده ووقاه شر نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرم وصبر على عدوانهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم كالمهاجرين والأنصار ومن ابتلي من العلماء والعباد وصالحي الولاة والتجار وغيرهم][٤] .

---

(١) النور : ٤٨-٥٠ .

(٢) بدائع التفسير ١/ ١٥٥-١٥٦ ، مدارج السالكين ١/ ٤٨-٤٩ .

(٣) العنكبوت : ٢ .

(٤) بدائع التفسير ٣/ ٣٧٢-٣٧٣ ، زاد المعاد ٣/ ١٦ .

سادساً : مظاهر الشرك والفسوق :

أشار الإمام ابن القيم -رحمه الله- إلى بعض المظاهر والمخالفات الواقعة في عصره، في جانب الشركيات والفسق والفجور، ومن ذلك:

- كلامه عن المساجد والقباب المبنية على القبور، ودعوته إلى المسارعة في هدمها وإزالتها، وفتواه بأن الوقف على مثل هذه المخالفات لا يصح ولا ينفذ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى :[يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون](١) حيث قال :[... وقد أمر رسول الله e بهدم القبور المشرفة كما تقدم . فهدم القباب والبناء والمساجد التي بنيت عليها أولى وأحرى . لأنه لعن متخذي المساجد عليها، ونهى عن البناء عليها، فيجب المبادرة والمساعدة إلى هدم ما لعن رسول الله e فاعله ونهى عنه، والله عز وجل يقيم لدينه وسنة رسوله من ينصرهما ويذبّ عنهما فهو أشدّ غيرة وأسرع تغيراً . وكذلك يجب إزالة كل قنديل أو سرج على قبر، وطَفْيُه، فإن فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله e ولا يصح هذا الوقف، ولا يحل إثباته وتنفيذه](٢) .

- عند قوله تعالى :[وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ...](٣) الآية .

حيث أشار إلى تلبيس أهل الباطل وتسميتهم بعض أنواع الفجور بأسماء براقة يضللون بها الجهلة وضعاف العقول، وضرب عدداً من الأمثلة لتلك المسميات، فقال :[وإذا تأملت مقالات أهل الباطل رأيتهم قد كسوها من العبارات وتخيّروا لها من الألفاظ الرائقة، ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، -وأكثر الخلق كذلك- حتى إن الفجار ليسمّون أعظم أنواع الفجور بأسماء لا ينبو عنها السمع، ويميل إليها الطبع، فيسمون أم الخبائث أم الأفراح، ويسمّون اللقمة الملعونة لقيمة الذكر والفكر التي

(١) المائدة : ٩٠ .
(٢) بدائع التفسير ٢/ ١٢١ ، إغاثة اللهفان ٢/ ٢١٠ .
(٣) الأنعام : ١١٢ .

تثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن، ويسمّون مجالس الفجور والفسوق مجالس الطيبة](١) ... الخ .

سابعاً : المتكلمون والفلاسفة :

كان لانتشار علم الكلام في عصر ابن القيم أثره الواضح في تنزيل الآيات القرآنية على واقع المتكلمين والفلاسفة وشبهاتهم، وبيان مخالفاتهم وإعراضهم عن الوحي القرآني إلى ترهات العقول وزبالات الأذهان، ومن كلامه في ذلك:

- عند قول الله عز وجل :[ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن](٢) حيث بين معنى الآية ثم أشار إلى زعم بعض المتكلمين بأن المراتب المذكورة في الآية إنما هي القياسات المنطقية، فردّ عليهم وفنّد شبهتهم فقال :[... هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام، والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات وهذا باطل وهو مبني على أصول الفلسفة وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها ..] إلى أن قال :[فتنزيل القرآن على قوانين أهل المنطق اليوناني واصطلاحهم وذلك باطل قطعاً من وجوه عديدة ...](٣) الخ كلامه .

- في قوله تعالى :[فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم](٤) .

حيث بيّن أن معنى الآية أن لا جدال ولا خصومة بعد ظهور الحق واستبانته، ثم أشار إلى الفهم الخاطئ لمعنى الآية لدى بعض المتكلمين فقال :[وقد يقع في وهم كثير من

---

(١) بدائع التفسير ٢/ ١٧٤ ، الصواعق المرسلة ٢/ ٤٣٨ .
(٢) النحل : ١٢٥ .
(٣) بدائع التفسير ٣/ ٦٤-٦٦ ، مفتاح دار السعادة ١٦٧ .
(٤) الشورى : ١٥ .

الجهال أن الشريعة لا احتجاج فيها وأن المرسل بها صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يحتج على خصومه ولا يجادلهم، ويظن جهال المنطقيين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهور ولا احتجاج فيها وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة، والحجج للخواص وهم أهل البرهان يعنون نفوسهم ومن سلك طريقتهم، وكل هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن، فإن القرآن مملوء من الحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد وإرسال الرسل وحدوث العالم، فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلاً صحيحاً على ذلك إلاّ وهو في القرآن بأفصح عبارة وأوضح بيان وأتم معنى وأبعده عن الإيرادات والأسئلة، وقد اعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين](١) .

- في قوله تعالى :[إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد](٢) حيث قال :[وأما من فسّر الآية بأن المراد بمن كان له قلب هو المستغني بفطرته عن علم المنطق، وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد الأوسط بسرعة فهو لكمال فطرته مستغن عن مراعاة أوضاع المنطق، والمراد بمن ألقى السمع وهو شهيد من ليست له هذه القوة فهو محتاج إلى تعلم المنطق ليوجب له مراعاته وإصغاؤه إليه وأن لا يزيغ في فكره ..] إلى أن قال :[وهو تحريف لكلام الله تعالى وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والإيمان، وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الإسماعيلية لما يفسرونه من القرآن وينزلونه على مذاهبهم الباطلة، والقرآن بريء من ذلك كله، منزه عن هذه الأباطيل والهذيانات ..](٣) الخ .

ويظهر من نقوله المتقدمة : الرد على المناطقة والمتكلمين والفلاسفة في تنزيلهم الآيات القرآنية على المذاهب الفلسفية والقوانين المنطقية، لتسويغ باطلهم وهذيانهم، كما يظهر التأكيد على تنزيه القرآن الكريم عن تلك الأباطيل والادعاءات، وأن في القرآن غنية عن ذلك الهذيان .

---

(١) بدائع التفسير ٤/ ١١٤ ، مفتاح دار السعادة ١٥٨ .

(٢) ق : ٣٧ .

(٣) بدائع التفسير ٤/ ٢٠٧ ، مفتاح دار السعادة ١٨٨ .

الخاتمة

وبعد هذا التطواف في تفسير الإمام ابن القيم -رحمه الله- وجمع المواضع التي عني فيها بتنـزيل الآيات على الواقع والوقوف على شيء من فقهه وعلمه بكتاب الله تعالى، أخلص إلى الآتي :

أولاً: أهم النتائج :

١) القرآن الكريم منهج حياة، ومحور نجاة، لمن أراد السعادة والريادة في كل زمان ومكان .

٢) تنـزيل الآيات على الواقع جانب مهم في تفسير القرآن وتقريب معانيه للأفهام .

٣) عناية المفسرين -قديماً وحديثاً- بتنـزيل الآيات على الواقع، والمقارنة بين الأحداث المستجدة في عصورهم وما يناسبها من آيات القرآن وتوجيهاته .

٤) تفاوت المفسرين في تنـزيلهم الآيات على الواقع قلة وكثرة، تصريحاً وتلميحاً، بحسب مناهجهم التفسيرية، أو قوة الأحداث وشدة الوقائع والنوازل .

٥) ارتباط مسألة تنـزيل الآيات على الواقع بعدد من قواعد التفسير ومسائل علوم القرآن .

٦) عناية الإمام ابن القيم -رحمه الله- بتنـزيل الآيات على الواقع : تأصيلاً له وتنظيراً، وعملاً به وتطبيقاً .

٧) للإمام ابن القيم -رحمه الله- منهج خاص في تنـزيل الآيات على الواقع، سلك فيه أسلوب التصريح أحياناً، والتلميح غالباً .

٨) تنوع الموضوعات التي عني فيها الإمام ابن القيم بتنـزيل الآيات على الواقع حتى شملت الجوانب العقدية والسياسية والاجتماعية والأحوال العامة، وغيرها .

٩) انضبط "تنـزيل الآيات على الواقع" عند الإمام ابن القيم -رحمه الله- بالنص القرآني، من غير تكلّف أو إفراط أو تفريط .

ثانياً : التوصيات :

١) أوصي أهل العلم وطلابه بالعناية بكتاب الله تعالى فهماً وتدبراً، وعلماً وعملاً .

٢) أوصي الباحثين في مجال القرآن وعلومه أن يعنوا بمسألة تنزيل الآيات على الواقع: بحثاً وتأصيلاً وجمعاً وتحريراً .

٣) أوصي الكليات والأقسام المعنية بالقرآن وعلومه في الجامعات وغيرها بإعداد مشروعات علمية يشترك فيها الأساتذة والطلاب تعنى بجمع أقوال المفسرين في "تنزيل الآيات على الواقع" ودراستها وتصنيفها موضوعياً وتاريخياً .

٤) أوصي علماء التفسير ومشايخه المعاصرين بأن يعنوا بتنزيل الآيات على الوقائع المعاصرة في دروسهم ومواعظهم وفق منهج سلف الأمة وأعلامها .

هذا وأسأل الله القدير، أن ينفعنا ويرفعنا بالقرآن العظيم، وأن يجعله ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين .

المراجع والمصادر

أ) المصنفات العامة :

١- ابن قيم الجوزية : حياته - آثاره - موارده / بكر أبو زيد/ دار العاصمة/ ط الثانية ١٤٢٣هـ .
٢- ابن القيم من آثاره العلمية : د. أحمد ماهر البقري/ مؤسسة شباب الجامعة - ١٩٨٧م .
٣- أحكام القرآن : أبو بكر ابن العربي/ تحقيق: علي البجاوي/ دار المعرفة-بيروت .
٤- البحر المحيط : أبو حيان الأندلس/ دار الفكر/ ط الثانية ١٤٠٣هـ .
٥- بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية : يسيري السيد محمد / دار ابن الجوزي / ط الأولى ١٤١٤هـ .
٦- البداية والنهاية : ابن كثير/ تحقيق: د. عبدالله التركي/ ط الأولى ١٤١٩هـ .
٧- بغية الوعاة : السيوطي/ تحقيق: محمد أبو الفضل/ المكتبة العصرية - بيروت .
٨- تطبيق الآيات على الوقائع المعاصرة "رسالة ماجستير" : عبدالعزيز الضامر/ جامعة أم القرى ١٤٢٥هـ .
٩- تفسير القرآن العظيم : ابن كثير الدمشقي/ دار المعرفة - بيروت ١٤٠٣هـ .
١٠- الدرر الكامنة : ابن حجر العسقلاني/ تحقيق: د. محمد رشاد سالم .
١١- الجامع لأحكام القرآن : أبو عبدالله القرطبي/ دار الكتب العلمية/ بيروت - ط.الأولى ١٤٠٨هـ .
١٢- شذارت الذهب : ابن العماد/ المكتب التجاري - بيروت .
١٣- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: محمد فؤاد عبدالباقي/ دار الحديث/ القاهرة ١٤٠٧هـ .
١٤- المحرر الوجيز : ابن عطية الأندلسي/ تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي/ دار الكتب العلمية - بيروت/ ط.الأولى ١٤١٣هـ .

ب) مؤلفات الإمام ابن القيم :

١٥- اجتماع الجيوش الإسلامية : دار الفكر - ١٤٠١هـ .

١٦- إعلام الموقعين : تحقيق: محمد عبدالسلام إبراهيم/ دار الكتب العلمية - بيروت/ ط.الأولى ١٤١١هـ .

١٧- إغاثة اللهفان : مكتبة السنة المحمدية .

١٨- بدائع الفوائد : المطبعة المنيرة .

١٩- التبيان في أقسام القرآن : تحقيق: حامد الفقي/ دار المعرفة .

٢٠- تحفة الودود : تحقيق: د. عبدالغفار سليمان/ دار الريان للتراث .

٢١- جلاء الأفهام : تحقيق: مشهور آل سلمان/ دار ابن الجوزي - الدمام/ ط.الثانية ١٤١٩هـ .

٢٢- زاد المعاد : مؤسسة الرسالة - بيروت/ ط.الثانية ١٤٠١هـ .

٢٣- شفاء العليل : دار المعرفة - بيروت ١٣٩٨هـ .

٢٤- الصواعق المرسلة : دار العاصمة - الرياض ١٤٠٨هـ .

٢٥- عدة الصابرين : دار ابن كثير - دمشق/ ط. الثانية ١٤٠٧هـ .

٢٦- الفوائد : المكتبة القيمة - مصر/ ط.الأولى ١٤٠٠هـ .

٢٧- الكلام على مسألة السماع : دار العاصمة - الرياض/ ط.الأولى ١٤٠٩هـ .

٢٨- مدارج السالكين : تحقيق: رضوان جامع رضوان/ المكتب الثقافي - القاهرة .

٢٩- مفتاح دار السعادة : مكتبة حميدو / ١٣٩٩هـ .

٣٠- المنار المنيف : مكتبة المطبوعات الإسلامية - سوريا/ ١٤٠٣هـ .

فهرس الآيات التي عُني ابن القيم بتنزيلها على الواقع
مرتبة حسب السور

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
الفاتحة	(اهدنا الصراط المستقيم)	٦	٣٠
البقرة	(مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ...)	١٧-٢٠	٣٢
=	(ولكل وجهة هو موليها...)	١٤٨	٢٧
=	(ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام..)	١٨٣	١٩
آل عمران	(شهد الله أنه لا إله إلاهو ...)	١٨	٣٢
= =	(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني...)	٣١	٣٤
المائدة	(يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر ...)	٩٠	٣٨
الأنعام	(وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوّا...)	١١٢	٣٨
=	(ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن...)	١٢٨	٣٠
الأعراف	(... فلا يكن في صدرك حرج منه)	٢	٢٨
=	(ادعوا ربكم تضرعاً وخفية)	٥٥	٣١
الأنفال	(وما كان صلاتهم عند البيت إلاّ مكاء..)	٣٥	٣٤
=	(ذلك بأن الله لم يك مغيراً ...)	٥٣	٣٦
التوبة	(أم حسبتم أن تتركوا ولّما يعلم ...)	١٦	٢٧
النحل	(ادع إلى سبيل ربك...)	١٢٥	٣٩
الحج	(ما قدروا الله حق قدره...)	٧٤	٣٣
المؤمنون	(يا أيها الرسل كلوا من الطيبات...)	٥١-٥٣	٣٥
=	(أفلم يدبروا القول ...)	٦٩-٧٠	٢٠
النور	(الزاني لا ينكح إلاّ زانية ...)	٣	١٨
العنكبوت	(أحسب الناس أن يتركوا...)	٢	٥٥

السورة	الآية	رقمها	الصفحة
الروم	(ظهر الفساد في البر والبحر...)	٤١	٣٥
لقمان	(واقصد في مشيك ...)	١٩	٣٤
سبأ	(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ...)	٢٢	١٧
الشورى	(ليس كمثله شيئ وهو السميع البصير)	١١	٢٥
=	(فلذلك فادع واستقم كما أمرت)	١٥	٣٩
ق~	(إن في ذلك لذكرى لمن كان قلب...)	٣٧	٤٠
الحاقة	(تنزيل من رب العالمين)	٤٣	٢٨
الانشقاق	(لتركبن طبقا عن طبق)	١٩	٢٦
البروج	(والسماء ذات البروج)	١	٢٦
التكاثر	(ثم لتسألن يومئذ عن النعيم)	٨	١٨
الفلق	(قل أعوذ برب الفلق...)	١ - ٣	٢٠

فهرس الموضوعات